خطبة بعنوان: حسن الخاتمة

يوم الجمعة: ١٤٣٩/١١/٠٧هـ لفضيلة الشيخ الدكتور/ عبد العزيزبن أحمد البداح

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا* يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد...

فيا أيها المسلمون... يعيش المرء في هذه الحياة ما كتب الله له ثم ينتهي به الأمر إلى أجله ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤] ويجاز المرء بعد ذلك على حسن عمله بالثواب، وعلى سوء عمله بالعقاب ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾ [الزلزلة:٧-٨]

والعبرة أيها المسلمون بحسن الخاتمة وخواتيم الأعمال، في الصحيحين: ((الأعمال بالخواتيم)) وعند الإمام أحمد: ((إنما الأعمال بخواتيمها)) وفي الصحيحين أيضًا: ((إِنَّ أحدكم لَيَعْمَلُ بعمل أهل الجنة حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكتاب فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فيدخلها، وَإِن أحدكم ليَعْمَلُ بعمل أهل النار حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فيدخلها)).

أيها المسلمون... أمر الله عز وجل نبيه ﷺ بطلب حسن الخاتمة فقال له: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] يعني الموت، وأمر المؤمنين بذلك فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢] ، وهي وصية الأنبياء لبنيهم ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٢] ، وهي دعاء يوسف عليه السلام ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١] ، وهي دعوة الصالحين من عباد الله المؤمنين ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾[آل عمران:١٩٣].

أيها المسلمون... وحسن الخاتمة من أسباب دخول الجنة عند أبي داود أنه ﷺ قال: ((مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ)) وهي علامة على إرادة الله الخير بعبده فقد جاء عند أحمد والترمذي أن النبي ﷺ قال: ((إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ، قَالُوا: وَكَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ يا رسول الله؟ قَالَ :يُوَفِّقُه لِعَمَلٍ صَالِحٍ ثم يقبضه عليه)).

أيها المسلمون... وحسن الخاتمة يتحصل بتحقيق التوحيد بعبادة الله وحده لا شريك له والإخلاص في ذلك، وترك عبادة ما سواه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾ يعني ولم يخلطوا ﴿إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ يعني بشرك ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]

وتتحصل حسن الخاتمة بتقوى الله عز وجل بفعل أوامره واجتناب نواهيه ومجاهدة النفس في ذلك ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣]

وتتحصل حسن الخاتمة بالاستقامة على أمر الله تعالى، والثبات على ذلك حتى الممات ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠]

وتتحصل حسن الخاتمة بالثبات على العمل الصالح، ولزومه وإدامة الحياة فيه، فإن العبد إذا وفق للدوام على العمل الصالح فقد وفق لحسن الخاتمة.

أيها المسلمون... ومن أعظم الصوارف عن حسن الخاتمة ذنوب الخلوات، وارتكاب المعاصي إذا كان العبد في حال خلوة، جاء عند ابن ماجه من حديث ثوبان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((يأتي أناس مِنْ أُمَّتِي بِأَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضاء، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ هَبَاءً مَنْثُورًا، ألا إنهم يصلون كما تصلون ويصومون كما تصومون، وَلَكِنَّهُمْ قوم إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا)) فيصدق العبد في توبته، ويصلح سريرته، ويكون على أحسن حال فيما بينه وبين ربه، فيوفق حينئذ لحسن الخاتمة، في الصحيحين: ((أن رجلًا قتل مائة نفس فطلب التوبة فلما صدق الله فيها كتب له حسن الخاتمة)).

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، وتقبل الله مني ومنكم تلاوته إنه هو السميع العليم، أقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه من كل ذنب إنه هو الغفور الرحيم.

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله تعظيمًا لشانه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا...

اعلموا أن الله أمركم بأمرٍ بدأ فيه بنفسه، وثنى بملائكته، وثلث بكم أيها المؤمنون فقال جل من قائلٍ عليمًا ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٥٦]

اللهم صل وسلم وزد وبارك على عبدك ورسولك محمد، وارضَ اللهم عن الأربعة الخلفاء، الأئمة الحنفاء أبي بكرٍ وعمر وعثمان وعلي، وعن الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنَّا معهم بمنك وكرمك وجودك وإحسانك يا رب العالمين.